

## الطراز البازيليكي والطرّاز البيزنطي في بناء الكنائس

**سؤال:** إذا كان بناء الكنائس يأخذ شكل الطراز البازيليكي أو البيزنطي أو الاثنين معا وأن كلاهما مصري أصيل فلماذا سمي بازيلكي أو بيزنطي، خاصة أن الطراز البيزنطي يُنسب إلى مدينه بيزنطة القديمة التي أسسها بيزاس؟

### الطرّاز البازيليكي

الكنائس القبطية غنيّة بالدلائل التي تؤكّد نظريّة جيلبرت سكوت G. Gilbert Scott (١٨١١-١٨٧٨م) في أنّ النّظام البازيليكي المسيحي ليس امتداداً للرّوماني. ففي مصر شاهد قوي وهو كنيسة المغارة الواقعة أسفل كنيسة أبي سرجه بمصر القديمة، ويرجع تاريخها إلى القرن الثاني أو الثالث للميلاد، وهي مقسّمة طولياً إلى ثلاثة أقسام. وطقس الهياكل الثلاثة في الكنيسة الواحدة، القائم في أقدم الكنائس القبطية، هو بحد ذاته برهان قاطع على أنّ وجود الرّواقين الجانبيين، هو طقس هندسي أكثر منه فنّاً. وهو موغل في القّدَم، إذ يرجع إلى عصور المسيحية الأولى، حيث كلُّ هيكل يتبعه صحن خاص، إلى درجة أنّ اعتُبر كلُّ هيكل بصحنه، عبارة عن كنيسة قائمة بذاتها، وباسمها الخاص، كما في كنيسة الأنبا أنطونيوس الأثرية بديره بالصّحراء الشّرقية.

إنّ الكنيسة الأولى عموماً بدأت بصالة مستطيلة بسيطة، يقسمها عقد دائري يفصل بين الهيكل والصّحن. هذا التّصميم الأوّلي، أضيف إليه طولياً فيما بعد، جناحان جانبيين، ثمّ إضافة ثالثة في المدخل. بينما أصل البازيليكا الرّومانية هو ساحة مفتوحة تحيط بها بواكي على أعمدة، ثمّ تطوّر هذا التّصميم فصارت هذه السّاحة مغطّاة بسقف، ثمّ أهملت البواكي الجانبيّة، فصارت البازيليكا الرّومانية عبارة عن صالة عالية يغطّيها قبو مستطيل. وفي هذه السّاحة أو هذه الصّالة، كان يجلس القاضي وحوله المحلفون ومساعدوه في القبو البازيليكي. وقد انتقلت هذه الصّورة إلى الأسقف الجالس على كرسيه، يحيط به الكهنة.

وجاء وقت تطابق فيه التّصميمان معاً، تصميم البازيليكا الرّومانية، وتصميم الكنيسة المسيحية الأولى. فصار الطّراز البازيليكي في الكنائس، هو ما يغطّي هياكل الكنيسة وصحنها بجمulon من الخشب أو الطّوب القرميد، ومثلها مثل الكنيسة المعلّقة بمصر القديمة.

### الطرّاز البيزنطي

الأقباط هم الذين اخترعوا القباب منذ العصر الفرعوني، ثمّ أدخلوه في كنائسهم في العصر المسيحي، وهو ما صار يُعرف فيما بعد باسم الطّراز البيزنطي. وعن مصر، أخذ الإغريق وكلّ الغرب هذا الطّراز، ومن ثمّ انتشر في كلّ كنائس الدّنيا. فإذا زُرت الهرم الثالث الذي بُني سنة ٢٥٥٠ ق.م، تجد أنّ حجرات الدّفن كلّها مزينة بالقباب، وقد اكتشفها الإنجليزي الأثري "فير" في سنة ١٨٣٨م.

وحتى الكنائس الصّليبيّة الشّكل، والتي تُسمّى بالطّراز البيزنطي، وهو النّظام الذي يعلوه دائماً القباب، هو اختراع مصري صميم. فالعمارة البيزنطي يستخدم شكل الصّليب في بناء الكنائس، وهو ما لم تعرفه كنائسنا القبطية القديمة. فالمهندسون الأقباط لم يكونوا يميلون إلى تصميم كنائسهم على هذا الشّكل.

ومن هذا نرى أن تأثير الفن القبطي، قد أصبح واضح التأثير على الفن البيزنطي. لهذا يجب أن يكون واضحاً أن الفن البيزنطي قد تأثر كثيراً بالفن القبطي وإلى حد بعيد<sup>(١)</sup>. ولكن علينا ألا نتجاهل نموذجاً واحداً متفرداً للقبة المركزية بين كنائس القاهرة، وهي كنيسة القديسة برباره، فهي الكنيسة الوحيدة التي يتخذ مبنائها شكل الصليب، برغم أن تفاصيلها تنتمي إلى الطراز البازيليكي بوجه عام.

ويؤكد العالم الإنجليزي بتلر ذلك بقوله: ”إن القبة - ولها الأهمية القصوى - تعود إلى أصل شرقي لا يُمارى فيه. وأظن أنه من المحتمل أن يكون الطراز البيزنطي قد استعارها من الإسكندرية وليس العكس... فمن المؤكد أن استخدام القبة في بابل يرجع إلى العصور القديمة، وأن المباني ذات القباب كانت شائعة الاستخدام في أيام الساسانيين<sup>(٢)</sup>، لذلك يستطيع الإنسان أن يتصور عمارة كنيسة آجياً صوفياً، مثلها مثل العمائر اليونانية في العصور الكلاسيكية، تدين بالكثير لمصر“.

ونستطيع القول إنه لا توجد في مصر حالة واحدة لكنيسة تمثل الطراز البيزنطي، لأن كنائس مصر تتميز بوجود القباب الكاملة فوق الهياكل، وليست أنصاف القباب التي تحيط بالقبة المركزية كما في الطراز البيزنطي الخالص<sup>(٣)</sup>.

ويلخص الدكتور طه حسين تأثر كلا الحضارتين المصرية واليونانية ببعضهما بقوله: ”كان من أشد الشعوب تأثراً بالعقل المصري أولاً، وتأثراً فيه بعد ذلك، العقل اليوناني“.

---

١- المجلة البطريركية، أيار، سنة ١٩٦٨م، ص ٤٢٨  
٢- حكم الساسانيون دولة الفرس من سنة ٢٢٦م إلى سنة ٦٥١م.  
انظر أيضاً: أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٥٣  
٣- بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٥